



في خضم الحرب العالمية الأولى، وبتاريخ 16 مايو/أيار 1916 وقعت بريطانيا العظمى وفرنسا معاهدة سرية في لندن. إن الصفة التي تعرف رسميا باسم اتفاقية آسيا الصغرى هي صفة تم التفاوض بشأنها من قبل الدبلوماسيين مارك سايكس وفرانسوا جورج بيكيو، وقد حددت تلك الصفة مصير الشرق الأوسط ونظامه السياسي منذ ذلك الحين، ولكن هذا لن يدوم طويلا.

قبل قرن من الزمان رسمت القوى الأوروبية التي كانت على وشك الانتصار والتي كانت مهتمة بتقسيم المنطقة التي كانت وقتها جزءا من الإمبراطورية العثمانية "خطا في الرمال" -حسب وصف الكاتب جيمس بار-. يمتد من ميناء عكا في شمال فلسطين ليصل إلى كركوك في شمال العراق على الحدود مع إيران.

لقد ذهب كل المناطق شمال ذلك الخط وخاصة لبنان وسوريا لفرنسا، وذهبت المناطق جنوب ذلك الخط -فلسطين وشرق الأردن والعراق-. لبريطانيا العظمى والتي كانت تسعى بشكل رئيسي لحماية المصالح البريطانية على طول قناة السويس والتي كانت المر البحري الرئيسي للهند البريطانية.

لكن في الوقت نفسه كانت المملكة المتحدة تتفاوض مع العرب الذين احازوا للبريطانيين والفرنسيين في اتفاقية ضد الحكم العثماني وخاصة مع حسين بن علي شريف مكة. لقد أعطي حسين وعدا بإعطائه سوريا في حالة الانتصار العسكري على الأتراك، ولكن طبقا لاتفاقية سايكس بيكيو فقد تم منح سوريا لفرنسا، وعليه كان لا بد من خداع أحد الطرفين وحرمانه من غنائم الانتصار.. وقد كان من الواضح منذ البداية من هو الطرف الأضعف، إنه العرب الذين كانوا يسعون للاستقلال.

لقد أدت الاتفاقية السرية التي فاوض عليها سايكس وبيكيو لاحقا لتشكيل دول خدمت المصالح الجيوسياسية للقوى الاستعمارية الأوروبية العظمى، وليس الحقائق الاجتماعية والدينية والعرقية للمنطقة. لقد تم فرض نظام سياسي على الشرق الأوسط المسلم من قبل قوى أوروبية مسيحية تجاهلت التزاماتها بالاستقلال العربي، وهو نظام شكل أساسا لقرن من الحروب والصراعات.

إن صدمة تلك الخيانة وهزيمة الحركة الوطنية في العالم العربي ما تزال موجودة، ولكن سايكس وبيكيو تمكنا من تحقيق المصالحة بين دولتين عظيمتين من دول الوفاق، واستمر النظام الإقليمي الذي قاموا بإنشائه في أعقاب قرون من الحكم

التركي/العماني. لقد حلت السيطرة الأوروبية متمثلة في بريطانيا وفرنسا مكان الباب العالي مما ضمن ذلك النظام سواء بشكل مباشر أو من خلال وكلاء إقليميين.

بعد الحرب العالمية الثانية تولت الولايات المتحدة الأمريكية دور الضامن النهائي لنظام سايكوس بيكتو، ولكن تجربة أميركا في العراق بعد التدخل سنة 2003 وانتشار الاضطرابات هناك وفي أماكن أخرى جعل الولايات المتحدة الأمريكية تسحب قواتها وتقلل من تدخلها في المنطقة، وبهذا بدأ نظام سايكوس بيكتو بالانهيار.

ولعل ذلك يفسر لماذا الأزمات الرئيسية اليوم في الشرق الأوسط موجودة على وجه التحديد في قلب اتفاقية سايكوس بيكتو: سوريا ولبنان والعراق. إن المسألة الكردية كذلك قد عادت للواجهة.

يبدو أن إسرائيل والأردن هما اللتان تتمتعان بالاستقرار دون غيرهما - مع التركيز على كلمة يبدو - فبدون المصالحة بين الإسرائيлиين والفلسطينيين ستكون القصة مسألة وقت فقط قبل أن يشتعل برميل البارود الفلسطيني مرة أخرى، كما أن استقرار الأردن يعتمد بشكل كبير على ولاء الجيش والقبائل البدوية للحكم الملكي، بالإضافة إلى وجود جهاز مخابرات يتمتع بكفاءة عالية، ولكن هذه أسس غير كافية للمرونة والمتانة، وخاصة بالنظر للتحولات الكبيرة التي تحصل في البلاد المجاورة أي العراق وسوريا.

إن هذين البلدين يمثلان الآن المسرحين الرئيسيين لمعركة نظام الشرق الأوسط لما بعد سايكوس بيكتو، فكلا البلدين لم ينعمما بالاستقرار لفترة طويلة وحكمهما حكام سلطويون بعيون علمانيون واجهوا أغلبية من الناس تتمنى لطائفه إسلامية منافسة؛ بالإضافة إلى عدد كبير من السكان الأكراد الذين حلموا بالاستقلال منذ فترة طويلة.

إن نظام ما بعد سايكوس بيكتو سيكون نتيجة للصراع في السنوات القادمة بين القوى الإقليمية - أولاً وقبل كل شيء بين إيران وال السعودية. وبين قوى أخرى ذات دوافع الدينية مثل حزب الله الشيعي وتنظيم الدولة الإسلامية السنّي وأي تدخل عسكري غربي سيفاقم فقط من الوضع.

إن الحقبة التي كانت تستطيع فيها القوى الغربية المسيطرة المحافظة على سيطرتها على الشرق الأوسط بالقوة العسكرية قد انتهت. إن القوى الإقليمية - وليس القوى الخارجية بما في ذلك روسيا - ستنشئ النظام الجديد في الشرق الأوسط والذي خرج من بقايا نظام سايكوس بيكتو، وعندما يحين الوقت الذي تنتهي فيه حروب الوكالة مثل الحرب في سوريا فإن اتفاقية سايكوس بيكتو ستكون قد أصبحت من التاريخ.

لكن يمكن أن يكون ظهور النظام الجديد بطيناً لأنه لا توجد قوة من القوى الإقليمية تتمتع بالقدرة الكافية لفرض إرادتها على الآخرين، ولو اتجهوا لخيار الصراع العددي من أجل السيطرة فإن الشرق الأوسط سيواجه كارثة سياسية وإنسانية ضخمة؛ وفي النهاية فإن الإرهاق التام من جميع الأطراف سوف يفرض المصالحة والخطوات الأولى في اتجاه التسوية الإسلامية الإقليمية.

هناك شيء واضح؛ وهو أنه كلما طالت فترة حصول اختراق من أجل إنشاء نظام جديد كلما أصبح الجميع في وضع أسوأ. إن مسيرة مطولة وفترة من البلقة في الشرق الأوسط لن ينتج عنها إلا المزيد من الأسى والمعاناة مما يشكل قبلة موقته للسلم العالمي، وبالنسبة لأولئك الموجودين خارج المنطقة فإن الأمل الوحيد هو أنه لا يوجد أحد ضمن المنطقة لديه مصلحة حقيقة بذلك.

